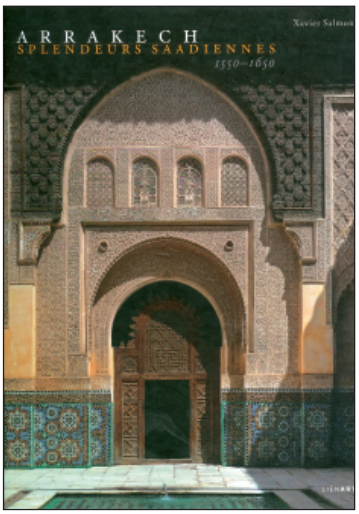

Xavier Salmon.- ***Marrakech, Splendeurs Saadiennes 1550-1650*** **(Paris: Lienart, 2016), 304 p.**

اختار المؤلف گزاڤيي سالمون، المحافظ العام للتراث بفرنسا، والمدير الحالي لقسم الفنون الخطية بمتحف اللوڤر، تخصيص فن العمارة السعدية في مدينة مراكش بكتاب من صنف الكُتب الجميلة. وهو ثاني كتاب يؤلفه عن المدينة ومآثرها التاريخية المشيدة زمن السعديين. فقد سبق له أن نشر سنة 2015 كتيبا بعنوان "**الباهية المنسية لمراكش، مصرية بحي المواسين،**" صدر ضمن منشورات متحف المواسين بمراكش، فتناول فيه بالوصف المعماري الدقيق منزلا خاصا شُيد زمن السعديين، أسهم المؤلف بقسط وافر في توجيه وتتبع عملية الترميم التي عرفها. ولعل ذلك هو ما دفعه للتفكير في توسيع أفق البحث، والاهتمام بعدد أكبر من المنشآت السعدية العمومية والخاصة المتبقية في المدينة. فكان هذا الكتاب الذي جاء موزعا على خمسة فصول، مهَّد لها بتقديم ولائحة للسلاطين السعديين مع تواريخ حكمهم، وأهم المحطات الكرونولوجية لتاريخ المغرب والتي استهلها بالعهد المرابطي دون أي مبرر علمي واضح. أما بالنسبة للفصل الأول، فقد جاء كمدخل تاريخي، غاية المؤلف منه تأطير الأحداث والوقائع والمنشآت الواردة في متن الكتاب. وقد تناول فيه ظروف نشأة الدولة السعدية وجهادها ضد الاحتلال الإيبيري، كما تتبع مسار توحيد السعديين للمغرب عبر القضاء على الإمارات المحلية المنافسة، واسترجاع عدد مهم من المدن المغربية المحتلة من قبل الإيبيريين. تلى ذلك الحديث عن مرحلة الاستقرار والازدهار النسبيين زمن حكم السلطان عبد الله الغالب بالله، وتجلياتها في المشهد العمراني بمراكش، لينتقل بعدها إلى رصد ملامح التوتر السياسي بعد وفاة هذا السلطان، وظروف نشوب معركة الملوك الثلاثة التي انتهت باعتلاء أحمد المنصور بالله سدة الحكم في الدولة السعدية. وهو ما مهّد الطريق من جديد لمرحلة ثانية من الرخاء والسلام، تميزت بتنظيم الإدارة والجيش، وتنمية المبادلات التجارية، وتطوير صناعة السكر، وضبط التوازن الدبلوماسي مع القوى الأوروبية والباب العالي، إلى جانب الاهتمام بإنجاز مجموعة من المشاريع العمرانية في العاصمة مراكش. لكن سرعان ما ستعم الفوضى البلاد، جراء انتشار الوباء ووفاة المنصور وتنازع أبنائه على الحكم، وهو

ما انعكس سلبا على المغرب عامة ومراكش خاصة. لتنتهي ملحمة السعديين في الأخير باغتيال آخر سلاطينهم سنة 1659م على يد الشبانات.

بعد هذا المدخل التاريخي، انتقل المؤلف في الفصول اللاحقة إلى دراسة نماذج من المعمار السعدي بمراكش، اختار تصنيفها حسب وظيفتها لا حسب تعاقبها التاريخي، فابتدأها بمنشآت الإيمان، وأعقبها بمنشآت تكوين النخب، ثم المنازل الأزلية، واختتمها بالقصور والمنازل. تناول في الصنف الأول منها المُجَمّعين الدينيين في كل من حومة باب دكالة وحومة المواسين، والذين أسِّسا زمن حكم السلطان عبد الله الغالب بالله. فالأول شيّد بمبادرة من السيدة مسعودة بنت الشيخ أبي العباس أحمد بن عبد الله بن الحسن الوزكيتي، بعد انقضاء مدة قصيرة على تولي الغالب بالله الحكم. أما الثاني فقد شيد بأمر من الغالب بالله، وامتدت أشغال بنائه ما بين سنتي 1562-63م و1572-73م. وقد تكَوَّن كل مجمع فيهما من عدد مهم من المرافق الضرورية للحياة اليومية ولأداء الشعائر الدينية، كالميضأة والمراحيض المحيطة بها، والحمام، وخزانة الكتب، والمدرسة القرآنية [المسيد] والسقاية العمومية، إضافة إلى مساكن القائمين على الشأن الديني بالمجمع. ويُرَجّح المؤلف تأثر الغالب بالله في إنشائه لهذه المجمعات المتكاملة بالنموذج المملوكي في القاهرة والنموذج العثماني في شبه جزيرة الأناضول، دون إلغاء النموذج المغربي السابق على العهد السعدي، خاصة منه الموحدي والمريني. أما بالنسبة للمسجدين، فقد تميزا بتربيع الصحن وتوسعته مقارنة بقاعة الصلاة التي صارت مساحتها أصغر بقليل من مساحة الصحن، عكس ما كان سائدا في العصر الوسيط. في المقابل، حافظ المسجدان على التصميم الموحدي على شكل حرف T اللاتيني، لكنهما جمعا في زخرفتهما بين مجموعة من الأشكال المستوحاة من النماذج الموحدية والمرينية والإسبانية والعثمانية، استدل المؤلف على كل واحد منها بمثال أو أكثر من داخل المسجدين. من جهة أخرى، تولى السلطان عبد الله الغالب بالله إصلاح جامع المنصور بالقصبة، بعد تعرضه لضرر كبير جراء انفجار هزّ أركانه قبل سنة 1576م. فأعاد بناء إحدى قبابه، وزخرفة بعض جوانبه، كما جدّد بلاطة القبلة، وأضاف للجامع بعض تيجان الأعمدة الرخامية.

انتقل المؤلف بعد ذلك للحديث عن إضافات السعديين بجامع القرويين في فاس، مع العلم أن الكتاب مُكرس لمنجزات السعديين بمراكش دون غيرها من الحواضر. وهو الاستثناء الوحيد الذي صادفناه في الكتاب، دونما أي تبرير. فقدّم وصفا معماريا مُفصَّلا للرواقين المشيدين بالطرفين الشرقي والغربي لصحن الجامع، والذين استلهم نموذجهما

من صحن الأسُود في قصر الحمراء بمدينة غرناطة. وقد شدّد المؤلف أثناء وصفه لهما على الاختلافات المعمارية والزخرفية الكائنة بينهما، نظرا لطول المدة الفاصلة بين بنائهما [عشرون سنة]، وعلى حضور بعض مواد البناء الموحدية والمرينية المُعاد استعمالها فيهما. إلى جانب هذه الأشغال، قام السعديون بتشييد حصنين فوق التلال الشمالية والجنوبية المشرفة على مدينة فاس، كما أعادوا بناء بيت الاعتكاف في جامع القرويين، وزودوا خزانة هذا الجامع بعدد مهم من الكتب. مباشرة بعد ذلك، عاد المؤلف إلى مراكش، ليتناول بالوصف واحدا من آخر المشاريع المعمارية السعدية في المدينة، وهو جامع ومدرسة وخزانة زاوية أبي العباس السبتي، التي أمر السلطان السعدي أبو فارس الواثق بالله بتشييدها، في مرحلة تميزت باشتداد الصراع حول الحكم بين أبناء المنصور. وقد توصل الباحث بعد الدراسة المفصلة لهذه المباني، لنتيجة مفادها أن الجامع ظل محافظا لوحده على شكله وزخارفه السعدية، في حين لحق التغيير والتبديل بقية المرافق نتيجة الأشغال التي عرفتها خلال القرنين XVIII و XIXم.

إلى جانب المنشآت الدينية، اهتم السعديون بالتعليم وتكوين النخب، فأسسوا بمراكش مدرسة تعرف إلى يومنا هذا بمدرسة ابن يوسف، انتهت أشغال بنائها حسب إحدى الكتابات العربية المنقوشة في الصحن سنة 972هـ/ 1564-65م. وقد رجّح المؤلف أن تكون المدرسة قد بنيت في الموضع الذي كان الموحدون قد شيدوا به مدرسة زمن حكم الخليفة المرتضى، والذي اختاره المرينيون بدورهم لبناء مدرسة زمن حكم السلطان أبي الحسن المريني. من جهة أخرى، نبّه المؤلف للتغيير الكبير الذي مسّ مجموعة من العناصر الزخرفية في المدرسة جراء أشغال الترميم التي عرفتها منذ سنة 1916م. كما كشف في وصفه لها عن وجود اقتباسات من المدونة الزخرفية المرينية والنصرية الأندلسية، مُشددا في الآن نفسه على تطوير الحرفيين السعديين لتلك الاقتباسات، وعدم اقتصارهم على النقل فقط.

بعد الدراسة المفصلة للمنشآت الدينية والتعليمية، انتقل المؤلف إلى صنف آخر من المباني السعدية، هو الأضرحة والمقابر. فقدّم لها من خلال ثلاثة نماذج هي قبور الأشراف في ضريح سيدي بن سليمان الجزولي، وضريح سيدي يوسف بن علي، ثم مقبرة الأشراف السعديين في القصبة. فالأولى شيدت في العهد السعدي لتستقبل جثماني أبو عبد الله محمد القائم بأمر الله وأبو العباس أحمد الأعرج، لكنها جاءت بسيطة على مستوى المبنى والزخرفة. أما الضريح الثاني، فقد شيد بأمر من السلطان عبد الله الغالب بالله بعد تحويله

حارة الجذامى من خارج باب أغمات إلى خارج باب دكالة. وقد جُعل لهذا الضريح تصميم شبيه إلى حد ما بتصميم القاعات الجنائزية الغربية في مقبرة الأشراف السعديين بالقصبة، مع العِلم بأنها شيدت بعده لا قبله. أما بالنسبة لمواد بنائه وزخارفه فهي سعدية دون شك، باستثناء المحراب الذي خلى حسب المؤلف من أي عنصر زخرفي سعدي بسبب الإصلاحات المتعاقبة عليه طيلة القرنين XVIII و XIXم، خلافا لمقبرة الأشراف السعديين في القصبة التي حافظت على شكلها وزخارفها الأصلية إلى حد كبير، حتى باتت نموذجا يتخذه المؤلف على الدوام كمعلم لتحديد خصائص ومميزات فن العمارة السعدي. وقد أثار الباحث في وصفه للمقبرة مجموعة من القضايا والإشكالات على رأسها مسألة الكرونولوجيا، فرجّح انطلاق أشغال تشييد الأبنية الجنائزية زمن حكم الغالب بالله، واكتمالها فيما بعد على يد المنصور بالله، مع تأكيده في الآن نفسه على بدء عمليات الدفن قبل ذلك بكثير اعتمادا على الكتابات الشاهدية المتوفرة.

أما الصنف الأخير من المباني السعدية التي تناولها المؤلف بالدراسة في هذا الكتاب، فهو القصور والمنازل، التي تعرضت لضرر أكبر من بقية المنشآت. فالقصور شكلت مقرا رمزيا للسلطة، وبالتالي كانت أولى المباني المستهدفة أثناء الأزمات السياسية. أما المنازل الخاصة المنتشرة بمختلف حومات المدينة، فقد شيدت بمواد أقل صلابة من تلك المستعملة في القصور، وبالتالي كانت أسرع للتلف. كما أن انتقال ملكيتها من شخص لآخر، عرّضها لعدد كبير من التغييرات في التصميم والزخرفة. ومع ذلك فقد نجا البعض منها، وظل محافظا رغم كل شيء على طابعه السعدي الأصيل. وكنموذج على النوع الأول من المنشآت، قصر البديع الذي رجّح المؤلف تأسيسه في البداية بأمر من السلطان الغالب بالله، ثم قيام المنصور بالله بعد معركة وادي المخازن بتجديد زخارفه أو إعادة بنائه من جديد حسب ذوقه. وقد استند الباحث في وصفه للقصر على روايات محمد الصغير الإفراني، وجون مُوكي، والأسير الفرنسيسكاني متياس دي سان فرانسيسكو، إضافة إلى التصميم البرتغالي لسنة 1585م. وقد تتبع في هذا الصدد مواد البناء السعدية المحتمل استقدامها من قصر البديع أو غيره من القصور السعدية المجاورة له في القصبة، لإعادة استعمالها في بعض المباني الدينية والمدنية في كل من مراكش [ضريح سيدي أحمد السوسي]، وفاس [ضريح المولى إدريس الثاني]، ومكناس [ضريح المولى إسماعيل، وقصره الذي تضرر كثيرا إبان زلزال سنة 1755م]، مؤكدا أن عملية تفكيك مواد بناء قصر البديع تمت تدريجيا منذ سنة 1684م. أما بالنسبة للمنازل الخاصة المحافظة

على طابعها السعدي الأصيل، فقد تركز معظمها في حومة المواسين، وبعض الحومات المجاورة، مثل دار الشريفة ودار الشرفاء المسعوديين وقصر السوسن [اسم دار الضيافة حاليا] في حومة المواسين، ودار الشرفاء المصلوحيين في حومة القصور، إضافة إلى منزل صغير بدرب الزنبوع في حومة أسول. وهي منازل ما تزال تختزن بدرجات متفاوتة كنوزا من الفن المعماري السعدي، خاصة دار الشرفاء المصلوحيين. لكن البعض منها يوشك أن يندثر بسبب انهيار قسم كبير منها وانعدام الصيانة، كما هو الحال بالنسبة لدار الشرفاء المسعوديين.

خَلصَ المؤلف بعد العرض المطول لعدد كبير من المنشآت السعدية الدينية والتعليمية والجنائزية والسكنية، إلى استنتاج مفاده أن العصر السعدي كان عصرا ذهبيا للفنون، لا عصر تراجع وركود حسب بعض مؤرخي الفن زمن الحماية أمثال هنري تيراس وجورج مارسي. مؤكدا أن السعديين نجحوا في اقتباس نماذج فنية قديمة من العهدين الموحدي والمريني، أضافوا إليها مجموعة أخرى من العناصر الزخرفية المستمدة من مصادر أجنبية [أندلسية وإسبانية وعثمانية]، ثم كيّفوا الكل مع الذوق السائد في العصر السعدي. وفي الختام، ذيّل المؤلف الكتاب بملحق للكتابات العربية المنقوشة على جدران قصر البديع كما وردت في كتاب **نزهة الحادي** للإفراني نقلا عن الفشتالي، ومعجم للمصطلحات التاريخية والتقنية الواردة في متن الكتاب، إضافة إلى لائحة المصادر والمراجع المُعتمدة، وفهرس الأعلام الجغرافية والبشرية.

لقد تمكن المؤلف في هذا الكتاب، من إبراز جمالية الفن السعدي وتثمينه، من خلال مجموعة رائعة ومتكاملة من الصور الفوتوغرافية الحديثة والفائقة الجودة الملتقطة من من قبله، إضافة إلى بعض الصور الفوتوغرافية والبطائق البريدية التي تعود إلى فترة الحماية الفرنسية، والتي بلغ مجموعها في الكتاب 423 صورة. وهي مجموعة توثق بشكل دقيق للتفاصيل المعمارية والزخرفية التي يستحيل أحيانا على الباحثين والزوار رؤيتها وملاحظتها. كما أنها تقدم وضعية بعض المباني السعدية قبل الهدم والترميم كما هو الحال بالنسبة للمجمع الديني بالمواسين. إضافة إلى ذلك، تتميز النصوص بقوة الوصف ودقته، فالمؤلف زار كل كل المعالم التاريخية التي تحدث عنها في الكتاب، ولم يقتصر في أي حال من الأحوال على الأوصاف المتوفرة في الكتابات الفرنسية القديمة. رغم ذلك، لم يخل الكتاب من بعض الثغرات والأخطاء والأحكام الجاهزة. فالمؤلف فرنسي لا يتقن اللغة العربية، لهذا السبب اقتصر في دراسته للتاريخ السعدي على مصدر مغربي واحد

هو **نزهة الحادي بأخبار ملوك القرن الحادي**، المُترجم إلى اللغة الفرنسية سنة 1889م. ولم يطلع قط على بقية المصادر السعدية سواء المترجمة إلى اللغة الفرنسية مثل **تاريخ الدولة السعدية التكمدارتية**، أو المنشورة باللغة العربية دون ترجمة مثل **المنتقى المقصور على مآثر الخليفة المنصور** لابن القاضي، و**مناهل الصفا في مآثر موالينا الشرفا** للفشتالي، كما أنه لم يستفد من **المصادر غير المنشورة لتاريخ المغرب** (.S.I.H.M). فضلا عن ذلك، وجدنا المؤلف ينقل عن الباحث يوسف راجي الإله بشكل غير مباشر، فهو لم يطلع على أطروحته الجامعية عن مدينة مراكش زمن السعديين، والتي ناقشها سنة 1996 بجامعة باريس السربون (باريس IV)، مع العلم أن المؤلف مقيم في مدينة باريس، ومن السهل عليه الإطلاع على هذه الأطروحة وغيرها من الأعمال الجامعية.

من جهة أخرى، اعتمد المؤلف على بعض التصاميم القديمة للمباني التاريخية السعدية، ولم يجتهد في تقديم تصاميم جديدة لتوضيح التحولات الطارئة على بعض المباني منذ فترة الحماية. بل أخطأ في نسبة تصميم لمدرسة ابن يوسف لجورج مارسي [1954]، مع العلم أنه من وضع مهندسين معماريين شاركوا في كتاب عن المدرسة المذكورة من تأليف حميد التريكي وألان دوثيفا [1999]. كما أخطأ سهوا في نسبة نقيشة عربية مؤرخة بسنة 1269هـ/ 1852-53م للسلطان السعدي محمد الشيخ المامون (1614-1607م)، بدل نسبتها لمحمد بن عبد الرحمان وقت خلافته لأبيه بمراكش. وفي تعريفه لاسم المواسين، ذكر جازما دون حجة أنه اسم أسرة شريفة استقرت بمراكش، مع العلم أننا لا نتوفر على أي دليل يؤكد ذلك أو ينفيه إلى حدود الساعة. بل وجدناه يردد دون أي تحفظ قصة تدمير السلطان مولاي إسماعيل لقصر البديع بسبب غيرته من بهائه وجماله، علما أن المولى الرشيد أقام بهذا القصر سنة 1668، كما استقبل المولى إسماعيل به البعثات الدبلوماسية. إلا أن التجاء المتطلعين والمستشرفين للحكم به، وتحوله لمنطقة موبوءة جعلت المولى إسماعيل يتخذ قرار هدم ما تبقى منه حسب المؤرخ عبد الهادي التازي.

فضلا عما سبق، لا نوافق المؤلف في تأريخه لقبة لالة مسعودة في مقبرة الأشراف السعديين بعهد السلطان عبد الله الغالب بالله. فالمقري زارها زمن حكم السلطان أحمد المنصور بالله، فقال: "وقد زرت هذا الضريح الكريم، ودعوت الله عنده بما أرجو قبوله، وشاهدت عظمة هذه القبة التي أنشأها أمير المؤمنين المنصور بالله أيده الله، وهي من جملة مآثره نصره الله، وداخلها ذهب ساطع في تلك النقوش الغريبة الصنعة." إنها إشارة

فريدة تؤكد تشييد القبة التي تعلو قبري محمد الشيخ وعبد الله الغالب على يد السلطان أحمد المنصور لا على يد عبد الله الغالب، وبما أن القبة كانت قائمة أثناء زيارة المقري لها سنة 1601م، فإن تشييدها سيكون قبل هذا التاريخ، مابين سنة 1578م [تاريخ تولي المنصور للحكم] وسنة 1585م [تاريخ إنجاز التصميم البرتغالي للقصبة حيث تم تصوير هذه القبة الجنائزية]. ومما يؤكد تشييد المنصور لهذه القبة، أمره وزيره عبد العزيز بن محمد الفشتالي بإنشاء النص الذي تم نقشه على اللوحة الرخامية التذكارية الخاصة بمحمد الشيخ، ونظم الأبيات الشعرية المنقوشة على شاهد قبره، إلى جانب النص المنقوش على اللوحة الرخامية التذكارية الخاصة بعبد الله الغالب والنص المنقوش على اللوحة الرخامية التذكارية الخاصة بوالدته لالة مسعودة، خلافا لما ورد لدى المؤلف گزاڤيي سالمون، الذي رجّح بسبب عدم اطلاعه على **روضة الآس** للمقري، إنجاز هذه الكتابات الشاهدية بعد وفاة المنصور لا قبل ذلك.

سمير أيت أومغار
أستاذ باحث، مراكش